من قصص الحبّ فى القرآن

تقول اللغة إن « الحب » هو الوداد ، ونقيضه : البغض . وتقول : الحب والمحبة ميل النفس إلى ما تراه وتظنه خيراً . وحب الله لعباده هو رضاه عنهم ، ويتبع ذلك إحسانه إليهم . ومحبة العبد لربه هى تعظيم الله تعالى ، وطلب الزلفى لديه ، والتقرب إليه بالطاعة والعبادة .

والله – جل جلاله – يحب أصنافاً من الناس – كما يحدثنا القرآن الكريم – فهو سبحانه يحب المتقين ، والمحسنين ، والمتطهرين ، والتوابين ، والمتوكلين ، والصابرين ، والمقسطين .

وهناك أصناف من الخلق لا يحبها الله عز شأنه ، فهو لا يحب المعتدين ، ولا الظالمين ، ولا الكافرين ، ولا المفسدين ، ولا المسرفين ، ولا الخائنين ، ولا المستكبرين ، ولا الفرحين .

والحب وصف مشترك بين الله والأخيار من عباده ، والقرآن الكريم يقول فى سورة آل عمران : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ ، ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، واللهُ غفورٌ رَحِيمٌ » . (الآية ٣١) . فمحبة العبد لله طريقها محبة الإنسان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتباع سنته ، والاقتداء بهديه ؛ ومحبة العبد لله

كما يقول الصوفية حالةٌ لطيفة يجدها من نفسه ، تحمله على موافقة أمره سبحانه برضاً لا تصحبه كراهية ، وتقتضى منه إيثار الخالق على كل شيء ، وعلى كل أحد .

ومحبة الله تعالى لعبده هى إرادته الإحسان إليه واللطف به ، أو هى ثناؤه سبحانه على العبد .

و « الحب » كما يقول الصوفية حرفان : حاء وباء . و « الحاء » إشارة إلى « الروح » و « الباء » إشارة إلى « البدن » ، فالمحب الصادق لا يدخر عن محبوبه قلبَه ولا بدنه .

ويقول القرآن الحكيم فى سورة المائدة : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (الآية ٥٤) .

ونفهم من هذا النص الكريم أن من يصدق فى حبه لربه ، لا يرتد عن دينه ويقينه ، فالحب دائم ، واليقين قائم ، والله يحب عباده الطائعين بالرحمة واللطف والإحسان والثناء . كما يحب العبد ربه بموافقة أمره فى كل الأحوال . .

وقد نقلوا عن الخضر قوله : « إن الزاهدين فى الدنيا قد اتخذوا الرضى عن الله لباساً ، وحبه دثاراً » . وقيل : لا تطمع فى حب الله مع محبة المال والشرف .

وقال حاتم الأصم : « من ادعى حب الله من غير ورع عن محارمه فهو كذاب ، ومن ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب ، ومن ادعى حب النبى صلى الله عليه وسلم من غير محبة الفقر فهو كذاب » .

ويقول الله تعالى فى سورة طه مخاطباً موسى عليه السلام : « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى ، وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى » (الآية ٣٩) . أى أحببتك ، وطرحت

فى قلوب الناس محبة لك .

وقد حدثنا كتاب الله المجيد عن ألوان من الحب ، منها الحب الأبوى المتمثل فى حب يعقوب لولده يوسف ، عليهما السلام . ويعقوب يعبِّر عن هذا الحب ، حين يطلب إخوة يوسف لأبيه أن يرسله معهم ليرتع ويلعب : « قال : إنِّي ليحزُنُنى ، أنْ تَذْهبُوا به وأخافُ أنْ يَأْكلَه الذِّئبُ وأنْتم عنْهُ غافِلُون » (يوسف ١٣) .

ويعبِّر يعقوب عن هذا الحب فى هذه الآيات : « وتَولَّى عَنْهمْ وقالَ : يا أسَفَا عَلَى يُوسُفَ ، وابيضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الحزْنِ فَهوكظِيمٌ ، قالُوا : تالله تَفْتأُ تَذكُرُ يُوسُفَ حتَّى تَكُونَ حَرَضاً أوْتكُونَ من الهالِكِينَ . قالَ إنَّما أشْكُو بَثِّى وحُزْنِى إلى اللهِ ، وأعْلمُ مِنَ الله مالَا تعْلَمُونَ ، يا بَنِىَّ اذْهَبُوا فتَحسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وأخِيهِ ، ولا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إنَّه لا يَيْأسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلَّا القوْمُ الكافِرُونَ » . (يوسف ٨٤ – ٨٧) .

ويعبِّر يعقوب عن هذا الحب الذى اشتد أُواره بعد فراق يوسف ، وغيبته التى امتدت وطالت . فذلك حيث تقول الآيات : « ولَمَّا فَصَلتِ الْعِيرُ قالَ أبُوهُمْ إنِّى لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لوْلا أنْ تُفَنِّدُونِ . قالُوا تاللهِ إنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ القَدِيمِ ، فَلَمَّا أنْ جاءَ البَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وجْهِهِ فارْتَدَّ بَصِيراً . قالَ : ألَمْ أقُلْ لكُمْ إنِّى أعْلَمُ مِنَ اللهِ مالاَ تعْلَمُون » (الآيات ٩٤ – ٩٦ من سورة يوسف) .

والقرآن المجيد يحدثنا عن حب الأنصار لإخوتهم المهاجرين الذى سما إلى مرتبة الإيثار ، فيقول فى سورة الحشر : « والَّذِينَ تَبوَّءُوا الدَّارَ والإيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إلَيْهِمْ ، ولا يَجِدُونَ فى صُدُورِهِمْ حاجةً مِمَّا أُوتُوا ويُؤْثِرُونَ عَلَى أنْفُسِهِمْ ، ولوْكانَ بِهِمْ خصَاصَةٌ ، ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ » (الآية ٩) .

وفى كتاب الله الجليل أنواع أخرى من الحب ، لا تبلغ درجةَ الحب المحمود عند اللهِ تبارك وتعالى ، فى سورة القيامة يحدثنا القرآن عن حب الدنيا حيث يقول : « كلاَّ ، بلْ تحبُّون العاجلة ، وتذرُون الآخِرَة » (القيامة ٢٠ — ٢١) . وهناك حب المال الذى يقول عنه القرآن فى سورة الفجر : « وتأكُلونَ التُّراثَ أكْلًا لَمًّا ، وتحبُّون المالَ حُبًّا جمًّا » (الفجر ١٩ ، ٢٠). ويقول فى سورة العاديات أيضاً : « إنَّ الإنْسان لربِّه لكنُودٌ ، وإنَّهُ علَى ذلِكَ لشَهيدٌ ، وإنَّهُ لحبِّ الخير لشديدٌ » (الآيات ٦ — ٨) والخير هنا يراد به المال .

وهناك حب الشهوات والملذات والرغبات ، حيث يقول القرآن فى سورة آل عمران : « زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهواتِ مِنَ النِّساءِ والبَنِين والقَناطِيرِ المقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ والخَيْلِ المسَوَّمَةِ والأنْعامِ والحَرْثِ ذلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيا واللهُ عِنْدهُ حُسْنُ المآبِ » (الآية ١٤) .

والقرآن العظيم يخبرنا فيما يحدثنا به من حديث الحب أن الإنسان قد يحب ما فيه شر له ، أو ماهو مكروه لديه . يقول فى سورة البقرة : « كُتِبَ علَيْكُمُ القِتَالُ وهُو كُرْهٌ لكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وهُو شَرٌّ لكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُون » (البقرة : ٢١٦) .

وأن الإنسان قد يحب من يريد له الشر ويتربص به الدوائر ، فالقرآن يخاطب المؤمنين فى شأن فريق من اليهود أو المنافقين ، فيقول فى سورة آل عمران: « يأيُّها الَّذين آمنُوا لا تتَّخِذُوا بِطانةً مِنْ دُونكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا ، ودُّوا ما عَنِتُّمْ ، قد بَدتِ البغْضاءُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ ، وماتُخْفى صُدُورُهُمْ أكْبَرُ ، قدْ بيَّنَّا لَكُمُ الآياتِ إنْ كُنْتُم تَعْقِلُونَ ، ها أنْتُم أُولاءِ تحبونَهُمْ ولا يُحبُّونكُم ، وتُؤمِنُون بالكِتاب كُلِّه ، وإذا لَقُوكُم قالُوا آمنَّا وإذَا خلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأنامِلَ من الغَيْظ ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُم إنَّ اللهَ عليمٌ بذاتِ الصُّدورِ ، إنْ تَمْسَسْكُم حَسَنةٌ تسُؤهُم ، وإنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ

يَفْرَحُوا بِها ، وإنْ تصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يَضرُّكم كيْدُهم شيئاً ، إنَّ اللهَ بِمَا يعْمَلُون مُحيطٌ » (الآيات ١١٨ – ١٢٠) .

° ° °

ولو أردنا تفصيل القول عن حديث القرآن عن الحب لامتد المجال وطال .

ولكن هناك فى القرآن المجيد « قصة حب » عجيبة رائعة ، هى قصة حب امرأة العزيز ليوسف عليه السلام ، ولقد أفرد القرآن لهذه القصة معظم السورة التى سميت « سورة يوسف » . وقد صدَّر كتابُ الله العلى الأعلى قصة يوسف بآية تدل على روعتها ، يقول فيها الحق جل جلاله : « نَحْنُ نقصُّ عليْكَ أحْسَنَ القَصَصِ بما أوْحَيْنا إليْكَ هذَا القُرْآن وإنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ » (الآية ٣) .

وقصة يوسف – فوق ما فيها من العبرة والعظة والتوجيه – تجتمع فيها الخصائص الفنية للقصة كما يعبرون ، فهى حافلة بالحركة ، والصراع ، والأحداث ، وفيها عناصر الانفعال ، والتشويق ، والمفاجأة . . . إلخ

هذا يوسف الفتى الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، ينشأ جميلا باهر الجمال ، طاهراً كامل الطهر ، أثيراً عند والده ، حتى يعصف الحسد بإخوته لأبيه ، فيكيدوا له كيداً ، ويتخلصوا منه بإلقائه فى البئر بعيداً نائياً ، ويزعموا لأبيهم أن الذئب قد أكله .

ثم يلتقطه بعض السيارة المسافرين ، وفى مصر يبيعونه بالبغى والظلم عبداً رقيقاً إلى كبير وزراء الملك فى مصر ، ويتفرس كبير الوزراء فى يوسف أصدق الفراسة ، ويتوسم فيه النبوغ والخير ، فيوصى زوجته الجميلة الفاتنة بيوسف خيراً ، ويوصيها راجياً بأن تحسن معاملته ، وأن تكرمه قدر استطاعتها ، رجاء أن يشب ويكبر ، فيكون للوزير المحروم من الذرية عوناً على بعض شئونه الخاصة أو العامة ، أو يكون لكبير الوزراء وزوجته ولداً يقوم لهما مقام الولد ،

فتقرَّ به أعينهما ، ويكون من بعدُ وارثاً لهما .

وينمو يوسف الجميل الوسيم ويشب ، وهو يزداد مع الأيام جمالا وشباباً ، وتشاء له عناية الله تبارك وتعالى أن يكون – فى قابل أيامه – صاحب تمكين وطيد ، ومنزلة عالية ، بطهارته وذكائه وعلمه ، ومعرفته حقائق الأمور وعواقب الأحداث ، وإرادة الله فوق كل شىء : « واللهُ غالبٌ عَلَى أمْرِهِ ولكنَّ أكْثَرَ الناس لا يَعْلَمُون » (سورة يوسف الآية ٢١) .

ويبلغ يوسف رشده وقوته ونموه فيما بين الخامسة والعشرين من عمره والثلاثين ، ويؤتيه الله سبحانه بصراً بالأمور ، وحكمة فى التصرف ، وإلهاماً وتوفيقاً فى معالجة ما يعرض من المشكلات والنوازل .

يقول الحق جل جلاله فى ذلك :

« وقالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأتِهِ ، أكْرِمِى مَثْوَاهُ ، عَسَى أنْ يَنْفَعَنَا ، أوْ نَتَّخِذَهُ ولداً . وكذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فى الأرْضِ ، ولِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأحَادِيثِ ، واللهُ غالِبٌ على أمْرِه ، ولكنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون . ولما بَلَغَ أشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وعِلْماً ، وكذلِكَ نَجْزِى المُحْسِنِين » (الآيتان ٢١ ، ٢٢) .

هذا فصل تمهيدى من القصة ، أو مقدمة أحداثها ، أو مرحلة أولى من مسيرتها .

* * *

وأخذت امرأة العزيز ، وهى الأنثى الناضجة التى جاوزت الثلاثين فيما يظهر ، أخذت تنظر إلى فتاها وخادمها ورقيقها ، نظرة أخرى غير النظرة التى نظرها زوجها إلى يوسف . لقد أراد كبير الوزراء – كما رأينا – أن يكون يوسف عوناً له ، أو قائماً مقام الولد المحروم منه ، وأراد الله تعالى – من قبل ومن بعد – أن يكون يوسف رفيع الشأن ، عالى المكانة ، صاحب السيادة ، ولكن امرأة

العزيز أرادته عشيقاً لها ، فهى مفتونة بهائه ، مبهورة بجماله ، فسيطرت عليها غرائز الحس ، ووساوس الشيطان والنفس .

ولعلها قدرت فى نفسها أن بلوغها ما تريد من هذا الفتى الرقيق الحادم ، أمر سهل ميسور ، سيسارع الفتى إليه ويحرص عليه ، ولكنه فى واد آخر ، فهو لا يتأثر ولا يستجيب .

وكان الأمر فى أول الطريق تلميحاً وتلويحاً ، لا إعلاناً وتصريحاً ، فأخذت تفتن فى طرق الإثارة والتحريض ، حتى بلغ بها التهالك فى حبها له أن تتبذل أمامه ، وتعرض مفاتنها عليه ، وتلطفت فى محادعته وإثارته لتحمله على إرادتها ، فيستجيب لرغبتها ، والفتى الطهور الأمين لا يرداد إلا اعتصاماً بربه ، وصيانة لثوبه ، وحفظاً لأمانته ، ووفاءً للرجل الذى آواه ورعاه وأكرم مثواه ، وائتمنه على بيته وأهله .

ونفدت حيل المرأة الهلوك ، وفرغ صبرها واحتمالها للمحادعة ، فاستسلمت وأسلمت قيادها ، ولجأت إلى المصارحة والمكاشفة ، بعد أن عجزت أمام حبها الطاغى وشوقها العارم وعاطفتها المتأججة .

فماذا كان منها وهى السيدة المطاعة صاحبة الترف والنعيم ؟

خلت بيوسف ، وأحكمت إغلاق الأبواب ، ووقفت أمامه صريعة هواها الجموح ، ونسيت عزها وجاهها وسلطانها ، وقالت له : هيت لك . . . هأنذا بين يديك ، فهلم أقبل وبادر .

وهنا يشمخ يوسف بعزة الفضيلة ، وأنفة العفة ، وكبرياء الطهر ، ووور الإيمان . . .

فلا يستجيب للإغراء وإنه لقوى قادر ، ولا للإثارة وإنها لشديدة ، بل يقول فى عزم وإباء مستعيذاً بربه : معاذ الله ، إنه إلهى وخالقى ، الذى كرمنى فأحسن

مقامى بين الناس ، ووقفى للاعتصام به ، والتمسك بالأمانة والصيانة ، وحفظى من الإثم والخيانة .

ولعله أراد بالرب هنا صاحب الدار ومالكها ، وهو العزيز الذى أحسن معاملة يوسف ، وأوصى به خيراً . فلا يجوز فى شرعة يوسف أن يخونه مهما كان الإغراء ، ومهما كان التحريض ، فإن الخيانة عاقبتها الندامة والخسران .

ولم تكفّ المرأة الحموك عن تهالكها برغم إباء يوسف ورفضه ، فواصلت المحاولة لبلوغ رغبتها ، وكان يوسف قد أراد أن ينجو بنفسه وطهره ، ففرَّ إلى الباب يريد الخلاص من الموقف المزلزل الذى لا يعرف ما بعده ، وجرت المرأة الحلوك وراءه ، تحاول رَجْعه بكل حيلة ووسيلة ، وجذبته من قميصه فانشق من خلفه .

وهنا حدثت المصادفة المذهلة ..

ما كاد يوسف وامرأة العزيز يبلغان الباب فى هذه المطاردة الكثرة ، حتى وجدا « العزيز » عند الباب ... ويوسف فى خوف وفزع ، خشية الاتهام والافتراء ، والمرأة فى دهشة وخوف خشية الافتضاح ...

ولكنها تماسكت وضبطت أعصابها ، ولم تعدم حيلة ...

سرعان ما لجأت إلى مكرها وخداعها لزوجها ، فانقلبت بسرعة من امرأة مغرمة، تتهالك على أن ترضى رغبتها مع خادمها ورقيقها وفتاها « يوسف »، إلى زوجة تتظاهر أمام زوجها المفاجئ لها فى وضع غير كريم وغير لائق ، بأنها حريصة على شرفه ، ثائرة من أجل كرامته ، وطالبت بالسجن أو العذاب الأليم ليوسف الذى ادعت أنه أراد الاعتداء عليها .

ودُهل يوسف لهذا الافتراء الجرىء ، ولكنه تماسك ، وقرر الحقيقة المؤلمة ، فى حماسة الصادق وقوة المؤمن .

ووقف الزوج حائراً لا يدرى ما يصنع !

ولكن شاهداً من أهلها لفت الأنظار والأفكار إلى البرهان والدليل :

إن كان قميص يوسف قد انشق من أمام ، عن جهة صدره ، فهى صادقة فى دعواها ، وهو كاذب ، لأنها تكون قد دافعت عن نفسها وعرضها وهو يهجم عليها – كما زعمت – حيث أخذت بتلابيبه لتدفعه عنها ، فحاول أن ينتزع قميصه منها ، فانشق وهما يتنازعان أو يتصارعان ... وكان الانشقاق – لذلك – من أمام.

وإن كان القميص قد انشق من خلفه فهى كاذبة فى دعواها ، وهو صادق فى أنه فرَّ منها ، فلاحقته ، وجذبته من ورائه ، فانشق القميص . وكان الانشقاق – لذلك – من خلف .

واستبان الصبح لذى عينين . إن الانشقاق من خلف ! ...

وأدرك الزوج جريمة زوجته ، ولكنه لم يثر ، ولعله كان ضعيف الغيرة ، أو ضعيف الإرادة أمام زوجته ، فأراد أن يطوى الخبر ، وأن يستر الفضيحة ، فنصح ليوسف بأن يكتم النبأ ، ونصح لامرأته بأن تستغفر مما ارتكبت .

ويصور القرآن المجيد هذا المشهد الصاحب الثائر الملىء بالأمواج المتلاطمة فيقول :

« وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ، وغلَّقتِ الأبْوابَ ، وقالَتْ : هَيْتَ لَكَ . قَالَ : مَعاذَ الله ، إنه ربِّى أحْسَنَ مَثْوَاى ، إنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُون .

ولقَدْ همَّتْ بِهِ ، وهَمَّ بِها ، لوْلَا أنْ رأى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والفَحْشَاءَ ، إنَّه مِنْ عِبادِنَا المخْلَصِينَ .

واسْتَبَقَا البابَ ، وقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ، وألْفَيَا سَيِّدَها لَدَى البَابِ قالتْ : ما جَزَاءُ مَنْ أرادَ بأَهْلِكَ سُوءًا إلَّا أنْ يُسْجَنَ أوْعذابٌ أليمٌ ؟

قالَ : هِيَ رَاوَدَتْنِى عَنْ نَفْسِى . وشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أهْلِهَا : إنْ كانَ قميصه

قُدَّ مِنْ قُبلٍ فصَدَقَتْ ، وهُو مِنَ الكاذِبِينَ . وإنْ كان قميصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ، فكَذَبَتْ وهُوَمِنَ الصَّادِقِينَ .

فَلمَّا رَأى قميصَهُ قُدَّ مِنْ دُبرٍ قالَ : إنَّه مِنْ كَيْدكُنَّ ، إنْ كَيْدكُنَّ عظِيمٌ . يُوسُفُ أعْرِضْ عَنْ هذا وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ ، إنَّكِ كُنْتِ مِنَ الخاطِئِينَ » ! . (الآيات ٢٣ – ٢٩) .

ولقد وقف أهل التفسير طويلا عند قوله تبارك وتعالى : « ولقد همت به ، وهمَّ بها ، لولا أن رأى برهان ربه » . وذهبوا فى فهم هذا النص مذاهب ، وخلاصةُ حديثهم أن جمهور المفسرين يقولون : إن المعنى أنها همت به همَّ فعلٍ ، وهم بها همَّ النفس ، ثم تجلى له برهان ربه ، وتجلى له إيمانه ، فترك وانصرف .

ويرى صاحب « المنار » أن المعنى هو أنها همت به كى تضربه جزاء تأبيه وتمنعه ، وهم هو بالدفاع عن نفسه ، وردّ العدوان بمثله ، ولكنه فكر وتدبر ، فآثر الهرب ، لأنه لا يعرف عواقب الموقف لو حدث اعتداء ودفاع .

ويرى صاحب « ظلال القرآن » رأياً آخر يصوره بهذه الكلمات :

« الذى خطر لنا أن قوله تعالى : « ولقد همَّتْ بِهِ وهَمَّ بِها لوْلَا أنْ رأى بُرْهَان ربِّه » هو حكاية عن ماضٍ قبل واقعة المراودة وتغليق الأبواب ، وموقف التأبى الكامل الذى لا لين فيه ولا اتجاه ؛ وأنها همت به قبل ذلك . وقد يكون ذلك مرات ، وهى تغريه إغراء المرأة الصامت ، الذى لا يصرح كما صرحت أخيراً .

وهمَّ بها همَّ ميلٍ نفسى فى لحظة من لحظات الضعف البشرى – قبل أن يؤتى الحكم والعلم – ثم جاءه برهان ربه فيما أوتى ، وعُصِم من تأثير الإغراء الأنثوى . وهذا ما يقول عنه القرآن : « كذلِكَ لِنَصْرِفَ عنْه السُّوء والفَحْشاءَ إنَّه مِنْ عِبادِنا المخلَصِينَ » .

والسوء هو الاستجابة النفسية للإغراء ، والفحشاء هى الفعل الذى ينتهى إليه .

فلما كان الموقف الأخير ، كان يوسف محصَّناً تجاهه بما رأى من قبل من برهان ربه ، فكان رده حاسماً قاطعاً ، لا يقع معه هم ولا ميل فى أية صورة من الصور .

هذا ما خطر لنا ونحن نواجه النصوص ، وتصور الظروف ، وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية ، فقبل إيتاء الحكم والعلم ما كان يوسف سوى بشر . نعم إنه بشر مختار ، ومن ثَمَّ لم يتجاوز همه الميل النفسى فى لحظة من اللحظات ، فأما بعد الحكم والعلم فقد رأى برهان ربه ، ولم يعد للضعف البشرى فى مثل هذا الأمر سبيل .

ولا داعى لتكلف تفسير الهم بأنه همُّ الضرب ، حيث لا يوجد من النص دليل . وكذلك لا داعى لتفسير الهم بأنه ميل نفسى فى تلك الواقعة ، مع أنه قال : « معاذ اللهِ ، إنّه ربِّي أحْسن مَثْواى ، إنّه لا يُفْلح الظَّالمُون » .

فكان برهان ربه حاضراً معه ، فلم يكن ليهم بعد هذا ولو بالميل النفسى كما قال الجمهور .

وموقف المرأة معه هكذا داعية جاهرة ، أقرب إلى التنفير منه إلى الإغراء الذى يضعف معه ، فيحتاج إلى ما يوقف اندفاعه ، ولو كان اندفاع الميل النفسى لا الحيوانى » .

* * *

لكن الرواية لم تتم فصولا ...

كان ما كان ، وحاول الزوج الضعيف الغيرة أن يطوى الخبر ، وأن يعفِّى الأثر ... ولكن هيهات ، فللقصور آذان ، ولجدرانها عيون ... فسرى النبأ إلى

طائفة من نساء المدينة ، وأخذن يتحدثن به ، ويزخرفن فيه ، ويستكثرن على امرأة العزيز هذه المراودة ، بعد أن سيطر عليها حبها ليوسف ، واخترق شغافَ قلبها ، واستبد بها .

وسمعت امرأة العزيز بأحاديث النسوة واستنكارهن ، فأرادت أن تكيد لهن ، وفي الوقت نفسه تدافع عن تصرفها ، وتجعل لها عذراً فيما ارتكبت ، حتى تقيم الدليل على أنها مقهورة ، وأنهن لو وقفن موقفها . لعذرنها وأشفقن عليها ، فدعتهن إلى مأدبة في دارها ، وأجلستهن جلسة لينة مترفة ، وقدمت إليهن ألواناً من اللحم والفاكهة ، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً تقطع بها ما بين يديها ، ولعلها راعت أن تكون السكين قاطعة مرهفة الحد .

وبينما النسوة مشغولات بالطعام واستعمال السكاكين ، أمرت امرأةُ العزيز فتاها يوسف الجميل الفاتن الجمال ، أن يخرج عليهن فجأة ببهائه وروعته ، فإذا الدهشة تذهلهن ، وإذا هن بسبب هذا الحسن الرائع والجمال البارع يفقدن اتزانهن ، أووعيهن ، فيجرحن بالسكاكين الماضية المرهفة أيديهن ، بدلا من تقطيع ما يأكلن ، ذاهلات عما يفعلن ، واندفعن يقلن - كأنهن قد تواصين بالقول - : حاشا لله ، ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم ! ! . .

وانتهزت امرأة العزيز الفرصة ، وسخرت منهن قائلة : فذلك الذي لمتنني فيه ! . وأنتن الآن بعملكن هذا قد شهدتن لي ، فقد أوتي يوسف - كما يعبر صاحب المنار من روعة الجمال ما خلب ألبابكن في الوهلة الأولى من ظهوره أمامكن ، فما قولكن الآن في أمري معه ، وافتتاني به ، وقد ترعرع في داري ، وبلغ أشده واستوى أمام سمعي وبصري ، أشاهد جماله ليلي ونهاري : في قعوده وقيامه ، ويقظته ومنامه ، وطعامه وشرابه ، وحركته وسكونه ، وطالما تراءيت له في زينتي ، وعرضت عليه ما ظهر وما خفي من محاسني ومفاتني ، وهو لا يزداد

إلا إعراضاً عنى ، واحتقاراً لتصرفى !

وواصلت امرأة العزيز الاستجابة لطيش عاطفتها ، فهددت يوسف – إن لم يستجب لها – بأنها ستسجنه وتذله وتقهره . ولكن يوسف لم يبال بهذا الوعيد بل اتجه إلى ربه يرجوه ويدعوه ، ويقول له فى نجواه : إن السجن أحب إليه من الاستجابة لذلك النداء الأثيم : نداء الشهوة المسعورة العارمة ، وسأل ربه أن يصرف عنه كيد هؤلاء النسوة ، حتى لا يضعف أو يلين – ذات مرة – أمام الكيد الموصول والتحريض المستمر والإثارة المزلزلة ، فاستجاب الله دعاءه ، وحقق رجاءه .

وتصوِّر السورة الكريمة هذه المرحلة من القصة بهذه الكلمات :

« وقالَ نِسْوَةٌ فِى المدينَةِ امْرَأةُ العَزِيزِ تُراوِدُ فتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إنَّا لَنَراهَا فى ضَلالٍ مُبِينٍ ، فلمَّا سَمِعَتْ بمَكْرِهِنَّ أرْسَلَتْ إلَيْهِنَّ ، وَأعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتكئاً ، وآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنهنَّ سِكِّيناً ، وقالت : اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ، فلمَّا رَأيْنَه أكْبَرْنَهُ ، وقطَّعْنَ أيْدِيَهُنَّ ، وقُلْنَ : حَاشَ للهِ ، ما هذا بَشراً ، إنْ هذَا إلَّا مَلَكٌ كرِيمٌ .

قَالَتْ : فَذلِكنَّ الَّذِى لُمتُنَّنِى فِيهِ ، ولقَدْ راوَدْتُه عن نَفْسِهِ فاسْتَعْصَمَ ، ولَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرهُ لَيُسْجَنَنَّ وليَكوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ .

قالَ : ربِّ السِّجْنُ أحَبُّ إلىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إلَيْهِ ، وإلَّا تصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أصْبُ إليْهِنَّ ، وأكُنْ مِنَ الجاهِلِينَ .

فاسْتَجابَ لَهُ ربُّهُ ، فَصَرفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ، إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ » (الآيات ٣٠ – ٣٤) .

° ° °

ثم بدا لأهل العزيز أن يسجنوا يوسف إلى أجل غير معيَّن ، لإخفاء

القصة ، وكفّ ألسنة الناس عن الخوض فيها ، ونسبوا إلى يوسف ما نسبوا من اتهام ملفق ، لتسويغ سجنه ؛ والزور قديم العمر .

وقضى يوسف فى السجن ما قضى ، وهو يبشر بدعوة التوحيد ، ويظهر من علمه وتعبيره الرؤى ما يظهر ، وبعد بضع سنوات هيأت الأقدار ليوسف أن يستشيره ملك مصر حينئذ فى رؤيا رآها ، ويفتيه يوسف فيها بعلم وفهم وفطنة ، ولا يغيب ذلك كله عن ذهن الملك .

ويرسل الملك إلى يوسف يستدعيه لمقابلته ، فيأبى يوسف أن يخرج من السجن ، حتى يحقق الملك فيما صنع النسوة من كيد وافتراء ، حتى لا يلقاه ورقته معلقة بتهمة هو منها برىء .

إنه لا يفرح بالحرية الظنينة ، ولا يسارع إلى الخروج من السجن قبل أن تظهر براءته واضحة معلَنة على رءوس الأشهاد . إنه يطلب إلى الملك أن يستجوب أولا هؤلاء النسوة اللواتى قطعن أيديهن ، حتى يمحص تلك المكايد التى أدخلته السجن ، ويعلن براءته ونزاهته على الملأ .

واستجاب الملك لطلب يوسف هذا الإنصاف ، وجمع النسوة ، وسألهن حقيقة الأمر ، فجهرن ببراءة يوسف ، وقلن : حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء .

وهنا تقدمت امرأة العزيز فى قوة وجرأة ، وأخذت تنفى عن يوسف الإثم ، وتنزهه عن العيب ، وتعترف بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ، وذكرت أن اعترافها هذا ، تريد منه أن يعلم يوسف أنها لم تسمح لنفسها أن تطعن فى شرفه وهو غائب فى السجن ، وها هى ذى الآن على رءوس الأشهاد - تشهد بطهارته وبراءته ، وتشهد على نفسها بأنها أساءت إليه ، وأساءت إلى نفسها ، وتسأل ربها تبارك وتعالى العفو والمغفرة .

تقول السورة الكريمة عن هذا المشهد من مشاهد القصة :

« وقالَ الملِكُ : ائتُونِي بِهِ فلمّا جاءَهُ الرّسُولُ قالَ : ارْجعْ إلى ربّكَ فاسْأَلْهُ : ما بالُ النّسْوَةِ اللّاتِي قَطّعْنَ أيْدِيَهُنّ ؟ إنّ ربّي بكَيْدِهِنّ عليمٌ .

قال : ما خطْبُكُنّ إذْ راودْتُنّ يوسفَ عنْ نفْسِه ؟ قُلْنَ : حاشَ للهِ ، ما علِمْنا علَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالتِ امْرأَةُ الْعزِيزِ : الآنَ حصْحَصَ الحقُّ ، أنا راودْتُه عنْ نفْسِهِ ، وإنّهُ لَمِنَ الصّادِقِين ، ذلِكَ لِيعْلَمَ أنّي لمْ أخُنْهُ بالغيْبِ ، وأنّ اللهَ لا يَهْدِي كيْدَ الخائِنِينَ ، وما أُبَرِّئُ نفْسِي ، إنّ النّفْسَ لأمّارةٌ بالسُّوءِ ، إلّا ما رَحِمَ ربِّي إنّ ربّي غفورٌ رحيمٌ » (من ٥٠ - ٥٣) .

ورجعت امرأة العزيز إلى الحق ، واعترفت بالحق ، واعتصمت بالحق ، فأثنت على يوسف وشكرته ، وعادت إلى ربها تائبة مؤمنة .

وكان لابد من المصير الكريم العظيم ، ليوسف التقي الأمين ، فإذا الأقدار تجعله صاحب الرأي والسلطة . وإذا الملك يقدّر يوسف قدره ، ويرفع ذكره :

« وقَالَ المَلِكُ : ائْتُونِي بِهِ أسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ، فلمّا كلّمَهُ قالَ : إنّكَ اليَوْمَ لدَيْنَا مَكِينٌ أمِينٌ .

قال : اجْعَلْنِي علَى خَزائِنِ الأرْضِ ، إنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ .

وكذَلِكَ مَكّنّا لِيُوسُفَ فِي الأرْضِ ، يَتَبَوّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشاءُ ، ولا نُضِيعُ أجْرَ المُحْسِنِينَ ، ولأجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلّذِينَ آمَنُوا وكانُوا يَتّقُونَ » (الآيات ٥٤ - ٥٧) .